

الأدب العالمي:

يعد الأدب العالمي World Literature حقلاً معرفياً مجاوراً لسابقه، دعا إليه ووضع مصطلحه الأديب الألماني وولفغانغ غوته، الذي كان يحلم ويستبشر بعصر تصير فيه كل الآداب أدباً واحداً، دون أن يعني ذلك التخلي عن الخصوصيات المحليّة، ولكن تلقي هذا المصطلح تاريخياً قد خضع لتأويلات ومواضع مختلفة "وربما تكمن أبسط إجابة عن ماهيته في فهمه بثلاث طرق: كمجموعة من الأعمال الأدبية، وكنظرية أدبية، وكطريقة قراءة"¹ إلى أن تحول بالتدرّج إلى الدلالة على تلك السلسلة الذهبية من الأعمال الأدبية التي قدمتها قرائح من مختلف شعوب العالم، والتي يصطلح عليها أيضاً بمصطلح "المعتمد الأدبي" Le Canon Littéraire، ولعل ما يجمع بينها أنّها واسعة الانتشار نتيجة ترجمتها إلى اللغات المختلفة، ممّا أكسبها صفة الخلود، فارتقت إلى مصاف الروائع Classics المعترف بقيمتها الفنية والفكرية في كل أنحاء العالم، وتندرج هذه الروائع تحت تخصصات الأدب المقارن بالنظر إلى أنّها نصوص مؤثرة في غيرها من الآداب. والملاحظ أن سلسلة الروائع العالمية بدءاً من القرن التاسع عشر وصولاً إلى ستينات القرن العشرين قد ظلت خاضعة تحت تأثير المركزية الأوروبية Eurocentrisme، حتى أنّ المرجعية المعتمدة في تشكيل أنطولوجيات الأدب العالمي قد انحصرت لوقت طويل في الأعمال الأدبية الأوروبية والأمريكية، ومثال ذلك كتاب "أنطولوجيا نورتن للروائع العالمية" الذي تمّ نشره سنة 1956، ولكنّ قائمة هذه الأعمال قد أخذت في الاتساع تدريجياً تحت تأثير ظهور تيارات فكرية جديدة سعت لتفكيك المركزية الغربية ذات الخلفية الاستعمارية في الفكر والأدب، ممّا سمح ب بروز بعض الأعمال الأخرى التي تقع خارج نطاق الآداب الغربية، والتي فرضت حضورها واستحققت الاعتراف بها في الساحة العالمية، لأسباب تتعلق بالجودة الفنيّة واتساع دائرة التبادل الثقافي العالمي، فضلاً عن سلطة الجوائز الأدبية العالمية ومسائل أخرى، ممّا جعل مفهوم العالمية في كثير من الحالات متداخلاً مع سياقات العولمة والصناعة الثقافية.

أ/ الجذور الأولى لمصطلح "الأدب العالمي":

تطرّق الأديب والمفكر الألماني غوته في مدينة فايمار عام 1827 وأثناء حوار مع صديقه إيكرومان حول القصص الصينية إلى مصطلح «الأدب العالمي» مشيراً إلى محدودية مصطلح الأدب القومي، وهذا نص الشاهد كما

¹ بشيميسوف تشابلينسكي، الأدب العالمي وقاماته، تر: فهد حسين العبود، مجلة الآداب العالمية، عدد 196، دمشق، خريف

ورد في المحاورات التي جمعها إيكerman لاحقاً: "إنني أصبحت على قناعة تامة، واصل غوته الحديث، بأن الشعر ملكية عالمية للبشرية، يكشف عن نفسه في كل مكان وفي كل الأوقات في المئات والمئات من الرجال. نجد أن أحدهم ينظم أفضل من الآخر، ويسبح على السطح لمسافة أطول من غيره- هذا كل ما في الأمر. لا يجب ألا يفكر ماتيسون بأنه ذلك الرجل، ولا أنا كذلك، بل يجب أن نقول إن موهبة الشعر ليست على الإطلاق نادرة جداً، وألا يفكر أي شخص في نفسه كثيراً لأنه قد كتب قصيدة جيدة"²، ففي الوقت الذي يؤكد فيه في هذا المقطع على علمية الشعر وكونيته بعيداً عن فكرة الحدود، يبيّن محدودية مفهوم الأدب القومي في عصره الحافل بأفكار تنويرية، فمفهوم الأدب العالمي يعارضه دون أن يلغيه، بل يعيد موضعه من جديد في سياق علاقته بالأداب الأخرى، انطلاقاً من أنّ معرفة الآخر شرط جوهري لمعرفة الذات، إذ يقول: "إلا أننا نحن الألمان من المتوقع أن ننزل بسهولة في هذا الغرور المتحذلق عندما لا ننظر وراء الدائرة الضيقة التي تحيط بنا، لهذا أحب أن أنظر حولي في الأمم الأخرى وأنصح كل فرد بذلك. الأدب القومي مصطلح لا معنى له في الوقت الحاضر، الأدب العالمي هو الذي يسود حالياً وعلى الكل أن يسرع للاقتراب منه، لكن وفي الوقت الذي نُقيّم فيه ما هو أجنبي لا يجب علينا أن نلزم أنفسنا أنّه نموذج يحتذى به. لا يجب إيلاء هذه القيمة للصيني، أو المصريين، أو كالديرون، أو "أولئك من الضباب"، أما إذا كنا نريد نمطاً يجب علينا أن نعود دائماً إلى الإغريق، حيث نجد في أعمالهم تمثيل الجنس البشري بصورة مستدامة، أما البقية فيجب أن ننظر إليها من جانب تاريخي فقط، نستفيد مما هو جيد فيه بقدر ما نستطيع"³، فعلى الرغم من تأكيده على فكرة الانفتاح في تلقي الظاهرة الأدبية بوصفها إراثاً إنسانياً عابراً للحدود؛ فإنّه يرفض فرضية تفضيل ما هو أجنبي على حساب الأدب الوطني (المحلي)، أو جعل هذا العالمي قدوة ونموذجاً يحتذى، انطلاقاً من رؤية متمركزة حول ما هو غربيّ بالدرجة الأولى، ويبدو ذلك في اتّخاذ التراث الإغريقي نموذجاً معيارياً مطلقاً لتحديد الأسس الجمالية، في حين تظلّ الآثار الأدبية الأخرى نماذج تاريخية يستأنس بها، يخضع اختيارها للمنظور النخبوي الأوروبي.

في حين اختار كل من ماركس وأنجلز في البيان الشيوعي الذي صاغاه سنة 1848م النظر إلى الأدب العالمي من منظور اقتصادي، بعدّه "عملية تداول لا تحركها الروح، بل قوانين التجارة والتبادل. وعليه، فإنّ الفكرة

² يوهان بيتر إيكerman، محاورات غوته مع إيكerman وسوريت، تر: إبراهيم جار الله، دار الرافدين، بيروت، ط1، ج1، 2020، ص316.

³ المرجع نفسه، ص316-317.

المصوغة من قبل غوته تتوجه، بشكل مسلم به، إلى الأشخاص المتنورين، في حين إن ماركس وانجلز ينظران إلى تنفيذ هذه الفكرة كنتيجة حتمية لمنطق رأس المال المدعوم من البرجوازية"⁴، ذلك أنّ احتياجات جديدة حلّت محل الاحتياجات القديمة التي كانت تشبع بسلع محلية، وهذا ما استدعي منتجات من بلدان أخرى، بحكم تراجع الاكتفاء الذاتي المحلي لصالح علاقات مشتركة بين الأمم، وما يتعلّق بالمنتجات الماديّة ينسحب أيضًا على الجانب الإبداعي والروحي، ويعد الأدب العالمي إفرارًا لهذا التعدّد، وفي هذا الصدد يرى حسام الخطيب أنّ الواقعية الاشتراكية التي أفرزتها هذه الرؤية تمثل أول مذهب أدبي شبه رسمي نظر إلى الأدب نظرة عالمية قافزة فوق كل أشكال الحواجز⁵

ارتبط تصوّر غوته للأدب العالمي بمفهوم الأدب العظيم، انطلاقًا من أنّه وليد إرادة معرفة لنخبة من المتنورين، في حين جعله صاحبها البيان الشيوعي انعكاسًا للنزعة الكويّية للطبقة البرجوازية المنساقّة بشكل دائم للبحث عن منتجات جديدة لإشباع حاجاتها الماديّة والذهنيّة، ممّا يجعل تشكّل الأدب العالمي نتيجة لحركة التجارة العالميّة والمبادلات العابرة للحدود، بغض النظر عن قيمته، فضلًا عن أنّ أهميته بالنسبة لهما تكمن في كونه منتجًا مؤهلاً للعمل كوسيط أيديولوجي يوثق الصلات بين المجتمعات وينشر الوعي بضرورة تكاتفهم واتحادهم، شرط أن تكون الصلات متبادلة، ممّا يسمح بتشكّل نظريّة أدبية عالميّة.

يبدو مصطلح الأدب العالمي في هذا السياق ذا نزعة تبشيرية مضلّلة تؤسّس للامساواة بين الآداب وتدعم بشكل غير مباشر الهيمنة الثقافية، فقد نتج هذا الحقل في سياق غربي للدلالة على ما أنتجه هذا الغرب بالدرجة الأولى، حتى أنّه كاد يتماهى في إحالته إلى الأدب الغربي لفترة طويلة من الزمن، على الرغم من نزوعه الإنساني، ولعلّ هذا ما جعل الكثير من الباحثين يشكّكون في مشروعيّة هذا الحقل وجدواه المعرفي، ومن هؤلاء نذكر المنظرة الأدبية إميلي أبتير Emily Apter خاصة في عالمنا اليوم، حيث غيرت العولمة المعايير فافرضت منطقتًا تجاريًا في صناعة الكتب وتحقيق رواجها، مفرزة أدبًا معولمًا تحوم الكثير من الشكوك حول معايير جودته، إذ تبدي "شكواها بشأن المظاهر الاحتفالية تجاه (الاختلافات) ذات البصمة الإثنية أو القومية والتي باتت تسوّق في يومنا هذا بعد أن

⁴ بشيميسواف تشابلينسكي، الأدب العالمي وقاماته، تر: فهد حسين العبود، مجلة الآداب العالمية، عدد196، دمشق، خريف 2023، ص50.

⁵ حسام الخطيب، العالمية والعولمة من منظور مقارني، مجلة عالم الفكر، العدد1 المجلد34، الكويت، سبتمبر 2005، ص14.

تم تسليعها تجاريًا تحت يافطة الهويات المسكوت عنها⁶، في حين تشير الباحثة الفرنسية باسكال كازانوف في كتابها "الجمهورية العالمية للآداب" إلى أنّ الأدب العالمي ليس مجموع ما ظهر من أعمال أدبية في كافة أنحاء العالم، وإمّا هو تداول لمجموعة من الأعمال التي اكتسبت امتيازًا ومقامًا رفيعًا بفضل إجراءات مخصوصة تمت بإشراف مركز ثقافي مخصوص، تصطلح على تسميته "بخط الزوال الصفري الأدبي"، وقد مثّلته عواصم ثقافية غربية مثل باريس/فرنسا منذ القرن التاسع عشر، لتتراجع مكانتها لاحقًا أمام خط اللغة الإنجليزية التي صارت تكتسح بقية العالم في ظل نزعة الأمركة المتسقة مع العولمة.

يؤكد آخرون في السياق ذاته على التباين في تلقي هذا المصطلح في سياقات تاريخية مختلفة، ومن هؤلاء نذكر دافيد جيروم الذي أظهر في كتابه "أطياف غوته" Les Spectres de Goethe ظلال المعاني التي شهدها هذا المصطلح منذ نشأته الأولى في نهاية القرن الثامن عشر، وتحديدًا سنة 1773، والتي ينسبها استنادًا إلى بحث فيلولوجي إلى أوغست لودفيغ شلوتسر الذي أشار في كتاب له عن تاريخ الأدب الأيسلندي إلى أن هذا الأدب خلال القرون الوسطى كان جزءًا من الأدب العالمي بالنظر إلى ارتقائه جماليًا وقيميًا، أمّا التوظيف الثاني للمصطلح فقد ورد قبل سنة 1813 على يد أديب ومترجم ألماني أقام هو الآخر في مدينة فايمار، هو كريستوف مارتين فيلاند، في تعديل على مقدمة ضمّنها ترجمته لرسائل هوراس (بخط اليد)، وتعني بالنسبة له المعرفة بالآداب الأخرى وتاريخها (عدا اللاتينية)⁷، في حين يعود الفضل إلى الأديب غوته في إثراء هذا المصطلح بمعانٍ جديدة تستند إلى فكرة مركزية وهي ما الذي يجعل الأدب عالميًا، معتبرًا الترجمة سببًا جوهريًا لإمكانية وجوده.

في سياق مغاير وضع دافيد دامروش مفهومًا جديدًا للأدب العالمي مفاده "ان الأدب العالمي ليس مجموعة مغلقة من الأعمال الأدبية التأسيسية، ولا كمية وافرة لا نهائية وغير قابلة للتأطير، من أعمال أدبية تنتمي إلى جميع الثقافات، بل هو طريقة للتداول والقراءة، يمكن أن تنطبق على الأعمال الأدبية الفردية وعلى المجموعات الأكبر،

⁶ آدم كيرش، الرواية العالمية التناول الروائي للعالم في القرن الحادي والعشرين، تر: لطفية الدليمي، دار المدى، ط1، بغداد، 2016، ص28.

⁷ - Goethe et la Weltliteratur, une conférence de Jérôme David

وسواءً على الكلاسيكيات الراسخة أو على الاكتشافات الحديثة⁸ إذ تعد الممارسة القرائية لهذه النصوص -سواء في لغتها الأصلية أو مترجمة- خارج حدودها شرطاً لانضوائها تحت مسمى الأدب العالمي.

لقد انتقل مفهوم الأدب العالمي من كونه مجموعة نصوص منتقاة بشكل نخبوي بالنسبة إلى غوته إلى كونه نظرية أدبية علمية في طور التشكل حسب ماركس وانجلز، ومن كونه امتيازاً يمنحه مركز ثقافي أو لغة مهيمنة تقوم بتصديره إلى بقية العالم حسب باسكال كازانوف إلى كونه لقاءً محلياً مع أدب أجنبي في ظل ممارسة قرائية تسهم في خلقه.

أما فرانكو موريتي في مقاله الموسوم بـ "تخمينات حول الأدب العالمي" Conjectures on world literature فيؤكد أنّ إشكالية الأدب العالمي اليوم تتطلب منهجاً دقيقاً لمقاربة قضاياها، فهو ليس شيئاً ثابتاً وإنما مشكلة أو إشكالية تتطلب مقاربة نقدية لا مجرد قراءة عدد أكثر من النصوص، فمن ناحية يستحيل الإمام بكل الآداب بالنظر إلى استحالة قراءتها جميعها في لغاتها الأصلية وبداية اكتشاف ما تسميه مارغريت كوهين "العظيم غير المقروء"، ويقصد بذلك آداب الشعوب التي همشت سابقاً بسبب مركزية توظيف المصطلح في السياق الغربي، كما أنّ منحها صفة العالمية خاضع لمعايير غير متكافئة شأنها في ذلك شأن نظام السوق في الاقتصاد العالمي، في ظل هيكل تراتبي وهيمنة قوى عظمى فعلياً ورمزياً، وفي ظل هذا النظام غير المتكافئ يرى أن الرواية اليوم تجسد الجنس الأدبي العالمي الذي تتضح من خلاله قوى التفاعل الثقافي والتبعية للنموذج الغربي، إذ يقول: "في الثقافات التي تنتمي إلى الهامش داخل النظام العالمي (والمقصود هنا تقريباً جميع الثقافات الهامشية وآدابها، سواء داخل أوروبا أو خارجها)، إذ تنشأ الرواية الحديثة في هذه الآداب ليس كتطور قومي مستقل؛ بل تتخذ شكلاً هجيناً بين المؤثرات الغربية (غالباً ما تكون فرنسية أو إنجليزية) والتراث المحلي"⁹، ويشبه مخرجات هذا التفاعل بالشجرة والموجة، ففي حين يمثل الامتداد الشجري البعد الوطني للأدب المحلي، تحيل الموجات على الأفق العالمي لهذا الأدب، ولعل محاولة تفسير هذه الاستعارة تكشف لنا الصورة بشكل واضح، إذ يحيل الامتداد الشجري إلى التنوع الذي يتفرع من جذر

⁸ بشيميسوف تشابلينسكي، الأدب العالمي وقاماته، تر: فهد حسين العبود، مجلة الآداب العالمية، عدد196، دمشق، خريف

واحد مشترك، في حين أن تشكل الموجة قد ينتج عن تلاقي تيارات متباينة ومختلفة لها القدرة على إحداث تغيير مفاجئ سرعان ما يتسرب وينبعث مسهما في تشكل موجات أخرى ذات بنية مركبة.

ختامًا يمكن القول: إذا كانت الروح القوميّة التي ميّزت أوروبا خلال القرن التاسع عشر قد أسهمت في ظهور الأدب المقارن في ظل المركزية الأوروبية (الغربية) والتأكيد على ضرورة قراءة النصوص في لغاته الأصليّة (بالنظر إلى محدودية المجال المدروس وتحيّزه الأوروبي)، فإنّ التحوّل الذي شهده المناخ الفكري الذي ميّز القرن العشرين، مع ظهور أزمة الأدب المقارن التي أثارها أعلام المدرسة الأمريكيّة واتساع دائرة الدراسات الترجميّة قد أسهم في بروز حقل الأدب العالمي، وفي هذا السياق ترى الدكتورة فاتن إ. مرسى في كتابها "نصوص مرتحلة تأملات في الأدب المقارن" في دعوة فرانكو موريتي للتخلي عن القراءة عن قرب *close reading* التي كانت تتوافق سابقا مع محدودية المعتمد الأدبي (المنحاز للمنجز الأدبي الغربي) لصالح القراءة البعيدة *Distant reading* المنفتحة على تراث أدبي إنساني ممتد زمانيا ومكانيا، إلا إحدى تجليات هذا التحول في دراسات الترجمة، إذ تغدو البديل الأكثر مناسبة لما تتيح من إمكانية البعد عن قراءة النص الأصلي في لغته، سواء عن طريق قراءة نصوص مترجمة، أو عبر وسائط أخرى شارحة للأصل.

ب/ الفرق بين العالمية والعمولة:

يشير حسام الخطيب في مقاله الموسوم بـ "ملامح العالمية الأدبية العالمية في عصر الاتصال والعمولة" إلى أنّ مدلول عالمية الأدب في عصرنا يختلف عمّا ذهب إليه أعلام المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن بدءًا بفان تييرغ وصولاً إلى غنيمي هلال من تصوّر حول العالميّة المقارنّة، كما أنّه يختلف عن تصوّر المثالي الذي ذهب إليه غوته، ذلك أنّ المقصود به ارتقاء أدب ما، كليًا أو جزئيًا إلى مستوى الاعتراف العالمي العام بعظمته وفائدته خارج حدود لغته أو منطقتة، والإقبال على ترجمته وتعرفه ودراسته، بحيث يصبح عاملاً فاعلاً في تشكيل المناخ الأدبي العالمي لمرحلة من المراحل، أو على مدى العصور¹⁰، مؤكّداً على أنّ الانتشار العالمي لأي أدب لا يتسم بطابع الشمول المطلق، بل يرتبط بمراكز التصنيع العالميّة المتحكّمة بنفوذها في صناعة ما يسميه بالزّي العالمي، مستشهداً في هذا السياق بالدور الذي لعبته باريس بوصفها عاصمة أدبية عالميّة في منح روايات أمريكا الجنوبية خلال سبعينات القرن الماضي صيغاً عالمياً، ممّا يجعل العالميّة صناعة تتداخل في تشكيلها العديد من العوامل غير الذاتية أو فوق أدبية، من

¹⁰ حسام الخطيب، ملامح العالمية الأدبية في عصر الاتصال والعمولة، مجلة علامات في النقد، المجلد 8، الجزء 30، جدة، ديسمبر 1998،

ذلك نذكر دور الجوائز العالمية التي تمنح تحت تأثير عوامل سياسية وحضارية وأحياناً شخصية، إضافة إلى قوة الدولة وهيمنتها ثقافياً أو سياسياً، فضلاً عن دور الإعلام في العصر الرقمي، بالإضافة إلى المقومات الذاتية التي يتسم بها النص الأدبي (الموقف الإنساني، اللون المحلي ونكهته الخاصة، عامل التفرد والابتكار والغرابة، التوازن بين الخاص والعام، الإبداع الفني)، والمقومات اللغوية، ذلك أنّ انتشار الأعمال الأدبية المكتوبة بلغات عالمية أسهل من غيرها.

في حين تعدّ العولمة واقعاً اقتصادياً أفرزته سياسات الهيمنة التي تنتهجها الولايات المتحدة الأمريكية، فعلى

الرغم من مساعيها الزائفة لتحقيق الوحدة العابرة للحدود والحواجز، فإنّها تنتصر لفكر أحادي يلغي التعدد

والاختلاف.